٥٩ ربي تراأف بعبادك ان الرأفة عاداتك فارحمنا برحماتك
بجاه وسلك الاطهار

من بيروت الى الهند

للاب لويس شيخو اليسوعي (تتمة)

١٦ من بمباي الى عدن — البحر الاحمر — رجوعنا الى بيروت

انَّ المسافة بين بمباي وعدن تبلغ نيفاً والفي كيلومتر تقطعها السفن في خمسة ايَّام على الاقلّ . وكانت باخرتنا المسمَّاة سُتلاج (Sutlej) من كبار البواخر حسنة التجهيز محكمة الادوات متقنة المعاهد سريعة السير ناقلة لبريد برنديزي وكان معظم ركابها من الاوربيين ولاسيما وجوه الانكليز على انَّنا وجدنا بينهم بعض تلامذة مدارسنا في الهند فسرَّنا الاجتماع معهم وبسط الحديث في امور تلك الاقطار . وكان احدهم محرّرًا في جريدة بمباي المعروفة بالبشير الكاثوليكيّ (Catholic Examiner) وهي كثيرة الانتشار في انحاء الهند يعدُّونها كلسان حال الكاثوليك في تلك الجهات

وكان سفرنا من اطيب الاسفار لانّ بحار تلك البلاد هي في وقت الشتاء هادية ساكنة على خلاف بحرنا المتوسط . فكانت السماء لا يشوبها غيم ومياه البحر شديدة الزرقة لعمق اغوارها فتسخر سفينتنا المياه ولا تكاد تشعر بحركتها . وكان اذا دخل الليل لاح الفلك مزدانًا ببروج ونجوم لم نعهدها في اقطارنا فكنَّا نرقبها بملْ الشوق امَّا البحر فكان يشعُّ شعاعاً عند اصطدام السفينة بألوف الالوف من صغار الحيَوانات التي تنتشر على وجه المياه فتُرى كانَّها شعلة نار

امَّا البرّ فلا ترى العين له اثرًا مدَّة ثلاثة ايَّام كاملة وهو لعمري منظر يؤثر في الانسان اعظم التأثير اذ يرى نفسهُ في بطن الواح يسيرة بين السماء والماء لا يرى من العالم غير افراد معدودين يخوضون معهُ غمر البحار تحت رحمة خالقهم فتتجلَّى للمسافر عظمة ربّ الكون ويشعر بعدمهِ بازاء مالك ناصيته

ووافق وقوع عيد ميلاد السيد المسيح في اثناء مسيرنا الى عدن . وهو موسم جليل يحتفل بهِ الانكليز احتفالاً باهرًا في اوطانهم ومستعمراتهم ويدعونهُ باسم قديم معناهُ قداس المسيح (Christmas) فاراد رئيس باخرتنا ان لا يُحرِم النوتيُّون وركَّاب السفينة من بهجة ذاك العيد فامر بان تُنشر الرايات وتزان المعاهد العموميَّة مع ظهر السفينة بالاقمشة واكاليل النبات وطاقات الزهور ووُزِّعت المشروبات والحلويات على الجميع

اما نحن فانَّنا فكَّرنا ايضاً في اقامة رتبة دينيَّة في اواسط الليل كما هي عادة الكنيسة اللاتينيَّة فطلبنا من القبطان ان يفرد لنا بعض غرف المركب لنُعدَّها للذبيحة المقدَّسة وان يسمح للنوتيَّة الكاثوليكيين بحضور الحفلة فاجاب المرما اليهِ بكل لطف الى ملتمسنا وارسل الى النوتيَّة يخبرهم بالرخصة الممنوحة لهم . فزيَّنا الغرفة بصور تقويَّة ونضَّدنا الزهور والرياحين ثم نصبنا هيكلنا النقَّال واوقدنا الشمع عند منتصف الليل فباشرنا بالحفلة وكان بعض النوتيين يرتلون الاغاني الروحيَّة وتقرَّب قلَّة منهم . فكان لهذا الاجتماع وقعٌ حسن في قاربهم وهم لم يعتادوه قبلاً على البحر وكان ذاك النهار يوم بهجة وحبور للركَّاب اجمعين تلوح على وجوه الكل امارات الفرح

وعند منتصف النهار من يومنا الرابع رأينا عن شمالنا جزيرة سقطرى المشهورة قديماً باسم ديوسقوريدس . وقد ذكرنا في مقالتنا عن تاريخ النصرانيَّة وآدابها في الجاهليَّة (ج ١ ص ٦٩ و١٤٦) تديُّن اهاليها بدين المسيح ورسالة اليسوعيين فيها . واليوم هي تحت حماية انكلترَّة واهليها اخلاط من الزنج والعرب والهنود يتاجرون بالصبر السقطري والتمر والنيل . وطول هذه الجزيرة نحو ١٣٠ كيلومترًا في عرض ٤٠ ك فيها جبال يبلغ اعلاها ١٤٠٠ متر . والجيولوجيُّون يذهبون الى انها كانت قديماً متَّصلة ببلاد الصومال من اعمال افريقيَّة ففصلتها الزلازل عنها

ثمَّ دخلنا في اليوم الخامس في خليج عدن فكنَّا نشاهد يميناً جبال حضرموت ثمَّ ما يليها من سواحل اليمن وشمالاً نسرِّح الابصار في اطراف افريقية مباشرةً برأس غواردافوي ثم اقطار الصومال وانكالا حتى ارست السفينة قريباً من عدن فنزلنا الى البرّ وقصدنا ان ننتظر فيها يومين او ثلاثة أيام ورود سفينة افرنسيَّة من شركة المساجري تركبها الى سويس ونفقة السفر عليها نصف النفقة على الباخرة الانكليزيَّة

وكان نزولنا في عدن في دير الآباء الكبوشيين الذين اكرموا مثوانا في مدّة اقامتنا عندهم . وكان هناك سيادة المطران لويس لاسارّ (Mgr L. G. Lasserre) النائب الرسولي على رسالة بلاد العرب والصومال فانس بنا وافادنا بما رواهُ لنا عن اعماله واعمال المرسلين الكبوشيين بين الحبشة والكالا اذ كان مع السيّد مسّايا (Mgr Massaja) الذي جعله بعد ذلك الحبر الاعظم لاون الثالث عشر كردينالاً . ثم مع السيّد تورين (Mgr Taurin) خلفهِ وكذلك بيّن لنا احوال رسالة عدن والصومال التي عُهدت الى عنايتهِ سنة ١٨٨٩

وعدن مدينة معتبرة لوقوعها عند مدخل البحار الهنديّة على ممرّ كلّ السفن القادمة من الشرق الاقصى فيأخذون منها حاجتهم من الفحم والماء الشروب . وهي على قسمين قسمٌ فيهِ الفرضة البحريّة (Steamer Point) وما يلحق بها من المستودعات التجاريّة والتحصينات ومقامات القناصل وثكنات الجند ودور الاجانب . وقسم هو في البرّ يبعد عن البحر نحو ساعة ونصف وهناك مدينة عدن الوطنيّة والاسواق وبيوت الاهلين . واهل عدن نحو ٤٠,٠٠٠ معظم تجارتهم البنّ والقطن والغلّات الواردة من انحاء اليمن . ويشتدُّ الحرّ كثيرًا في عدن حتى انَّ بعض الاجانب لا يستطيعون الصبر عليهِ الّا بالاستحمام المتواتر ومنهم من يترل ساعات في احواض الماء ويشتغل كذلك . والماء قليل في عدن واهلها يشربون من الآبار . وكان في قديم الزمان للمدينة صهاريج عاديّة وثيقة كان اصحابها يشربون منها فاستولى عليها الخراب واليوم يصرف الانكليز على ترميمها المبالغ الطائلة ليعود الاهلون الى الاستقاء منها

وكانت عدن سابقاً لسادة من اهل اليمن فاستولى عليها الانكليز سنة ١٨٣٩ وهم يعتبرونها كنقطة مهمّة من مراكزهم لاجل مستعمراتهم الهنديّة وقد حصّنوها تحصيناً واثقاً في وجه كلّ عدوّ يناوئها فلها القلاع الحريزة والمدافع الكبيرة التي تحرس قسمَيها البحري والبرّي مع عدد عديد من الجند فلا يستطيع احد فتحها الّا بعد شقّ النفس . ولهم فسحة واسعة وراءها كما انّهم يملكون منذ سنة ١٨٥٧ في البحر جزيرة تزيد عدن تحصيناً على مسافة ثمانية كيلومترات من سواحل العرب تدعى پاريم (Périm) ويحصّنها ايضاً مضيق باب المندب الواقع في غربيّها بين البحر

الاحمر وخليج عدن فمن هذا ترى انَّ نكتترَّة راسخة القدم في تلك الجهات لن يقوى عليها عدو

امَّا من حيث الدين فالغالب على اهل عدن الاسلام الَّا الاجانب من الفرنج وغيرهم وكانت عدن قبل الاسلام مركزًا لقبائل نصرانيَّة ثبت قوم منها على ايمانهم مدَّة ثمَّ انقطع عنهم ارباب الدين فتضعضعوا ولمَّا كانت السنة ١٨٨٩ فصل الكرسي الرسوليّ رسالة عدن عن رسالة الكَّالا وسلَّمها الى الآباء الكبوشيين والسيد لاسارّ اوَّل نائب رسوليّ عليها

وللمرسلين في عدن محلَّان الواحد عند الفرضة البحريَّة حيث اقنا في ضيافتهم ولهم فيه كنيسة بهيَّة يتردَّد اليها الكاثوليك ولا سيما الجنود الارلنديُّون المرابطون في البلد فيحضرون كلّ يوم احد وعيد الرتب الدينيَّة بكل تخشُّع ونظام ويسمعون الوعظ بالانكليزيَّة ولهم ايضاً مدارس يعلّمون فيها اللغات الاوربيَّة ويهذّبون ناشئة العيال الاوربيَّة التي تسكن عدن ويساعدهم في التعليم الاخوة المريميُّون . امَّا المدينة الوطنيَّة فلهم فيها مقام لليتامى من العرب والصومال ويساعد الآباء الكبوشيين راهبات من اخويَّة الراعي الصالح وغيرهنَّ ايضاً ومدارسهنَّ على قدم النجاح

على انَّ الآباء الكبوشيين لم يكتفوا بعدن بل حاولوا ان يفتحوا لرسالتهم منافذ اخرى ليخدموا الوطنيين ففي سنة ١٨٩١ دخل احدهم الاب يستنيان حُدَيدة حيث يقيم قوم من الاجانب وقنصل فرنسويّ فوجدوا في طريقهم عقبات ذلَّلوها بعد حين حتى صار العرب يتقرَّبون منهم ويثنون على همَّتهم وتفانيهم في مساعدة الفقراء وتعليم الصغار . ومن المرسلين الكبوشيين في حُدَيدة الاب فرنجس عذباء احد طلبة كلّيَّتنا البيروتيَّة كان هناك اذ مررنا في عدن

وفتح احدهم الاب اونجلست سنة ١٨٩٣ رسالة اخرى منوطة بعدن وذلك في العدوى الافريقيَّة الموازية لعدن في بربرة بين الصومال فامتلكوا اراضي واسعة ليشغلوا فيها اليتامى الذين يربّونهم بالفلاحة وهذه الرسالة لا تزال مزهرةً حتى اليوم . ومن اعمال المرسلين هناك انهم اخذوا يدرسون لغة تلك البلاد فصنَّفوا كتباً مفيدة لدرسها منها قاموس صومالي انكليزي وانكليزيّ صومالي وبعض كتب دينيَّة طبعوها في لندن

وقد صرفنا الوقت الباقي لنا في زيارة بعض الذوات كالقنصل الفرنسويّ والحاكم الانكليزي . ثمَّ سرنا الى زيارة مدينة عدن الداخليَّة فسرنا اليها مشياً وقطعنا سهلاً رحباً ثمَّ رقينا الى آكام قليلة الارتفاع الى ان بلغنا الى مضيق بين جبلين يسهل سدُّهُ في وجه العدوّ وهناك طريق منحوت في الصخر ينفذ الى مدينة عدن

فاجتمعنا في البلد ببعض تجار الشام كانوا مقيمين هناك يتاجرون بالبنّ فعرَّفونا ببعض شيوخ المدينة الذين لهم المامٌ بالآداب فرأينا انَّ بضاعتهم زهيدة جدًّا . اما الآثار الادبيَّة فلم نجد منها الَّا اليسير وامكننا مع ذلك ان نحصل على خمسة او ستَّة كتب ادبيَّة مخطوطة

وزرنا هناك ميتًا للآباء الكبوشيين في محلّ يعرف بشيخ عثمان فرأينا من نشاط هؤلاء الاحداث وذكائهم ما سرَّنا . وللراهبات ميتمٌ آخر للبنات . وقد اقام المرسلون هناك كنيسة حسنة لخدمة اولادهم وللجنود الارلنديين الكاثوليك ولبعض العمَّال الفرنسويين المتاجرين مع الاهلين

واهل عدن لفيف من عناصر البشر يختلفون لونًا ولغةً وزيًّا . وكنَّا نرى من المدينة صروحًا عالية كالصروح التي رأيناها في كوراتشي للمجوس ومنهم في عدن قوم ينقلون اليها موتاهم . ويشرف على عدن جبال وصخور كنَّا نرى فيها الجدران العالية فقيل لنا انَّ ذلك سدُّ ملكة سبا فيزعمون انَّها شيدتهُ كخزَّان للمياه لتسقي اراضي عدن في جدبها . وما لا يُنكر انَّ عملها يدلّ على رقيّ بُنَاتها الاقدمين

وكان سفرنا من عدن يوم الاحد الواقع في ٢٩ كانون الاوَّل . وفي صباح ذلك اليوم احتفل المرسلون بقداس خافل جعلوهُ كختام السنة وكانت الكنيسة رافلة بزينة عيد الميلاد فأُقيمت رتبة شائقة ابهجتها الموسيقى العسكريَّة بنغماتها مع اناشيد الجنود الحماسيَّة

وفي عصر النهار طلبنا بركة سيادة النائب الرسولي وشكرنا حضرة الآباء المرسلين فركبنا باخرة المسابجي القادمة من بلاد تونكين على طريق كولومبو حاضرة جزيرة سيلان المعروفة عند قدماء العرب باسم سرنديب . وكان ذلك اليوم شديد الحرارة ونحن في اواخر كانون وكنَّا رأينا في عدن المرسلين الكبوشيين لاحتدام الحرّ

لابسين الصوف الابيض الخفيف وعلى رؤسهم القبعات البيضاء الواقية من وقدات الشمس

فسرنا بامان وقطعنا مضيق باب المندب فنفذنا في بحر القازم المعروف بالاحمر. وكان البحر هادياً في ذلك الفصل على عكس بحر الشام وهو يهيج في فصل الصيف. وقد قطعنا المسافة بين عدن وسويس باربعة ايام . ولم يطل علينا الزمان لأننا كنا نمرّ بين قارتي آسية وافريقية فتتجدّد امامنا المناظر من ساعة الى أخرى فرأينا من جهة العرب جُدَيدة المارّ ذكرها وجاورنا جزيرة پاريم وكنا نرى في سواحل افريقية نواحي الصومال وكان قوم من اهلهم اتوا الى مركبنا قبل سفره فسرّونا بحركاتهم والعابهم وكان البعض من فتيتهم يصعدون الى السواري ثمّ يرمون بنفسهم من اعلاها الى قعر البحر ليلتقطوا دريهمات كان الركّاب يلقونها لهم

وفي الليل كنا نرى المنائر المضيئة التي يرتشد ارباب السفن بانوارها . وقد مرّ لنا وصفها في المشرق (٤ : ١٠٤٣) وقد عرفنا بنورها موقع جيبوتي (Djibouti) وابوك (Obok) اللتين اتخذتهما فرنسا كمستودع فحم لسفنها

ويوم الاثنين مررنا ليس بعيداً عن جدّة وهي فرضة مكّة وبلاد الحجاز وكنا شهدنا قبلها من جهة الشمال بلاد الحبشة وما احتلّهُ منها الايطاليُّون وكانت الحرب عند مرورنا لا تزال قائمةً على ساق بينهم وبين جيوش النجاشي منليك وانتهت بعد ثلاثة اشهر بكسرة الجيوش الطليانيّة وقائدهم باراتياري فاضطرّ الايطاليُّون الى ان يكتفوا بحلول مصوّع وقسم من سواحلها وذاك ما عُرف باسم مستعمرة الاريثره (Erythrée). وذكّرتنا مصوّع باحد مواطنينا الحلبيين المكرّم ابرهيم جرجي الماروني من الرهبانيّة اليسوعيّة الذي مات فيها شهيد الايمان في سنة ١٥٩٥ بعد تبشيره بالدين المسيحيّ في الهند

ويوم الثلثاء توسّطنا في مسيرنا بين تهامة يميناً والنوبة شمالاً . والسفن قلّما تربط في تلك الجهات اللهمّ الّا بعض المراكب الشراعيّة التي تتنقّل على سواحلها المجدبة غير المأهولة . وانّما وراءها من الجهة العربيّة « المدينة المنوّرة » التي فيها قبر نبيّ المسلمين والخلفاء الراشدين

قمنا في صباح اليوم التالي الاربعاء واذا هو رأس سنة جديدة وهي ١٨٩٦

دخلنا فيهـا باليمن والبركة وكان ذلك النهار كاحد ايام الربيع في سوريَّة فتلطَّفت وهّجات الحرّ لتقرُّبنا من بـلاد الشام . فكان اوَّل فكرنا ان نقدّس باكورة ذلك العام بتقدمة الذبيحة المقدّسة لعزّته تعالى ودعونا الى حضورها بعض الركّاب فاجابوا بطيب الخاطر . ثمَّ صرفنا باقي يومنا بالمرح وكانت السفينة في ذلك النهار تجتاز بين سواحل مصر فترى من جهتها الجبال المعروفة بالسلسلة العربيَّة (chaine arabique) وبين خليج عقبة ثمَّ شبه جزيرة سينا . فكانت تلوح لنظرنا تلك الانحاء التي جرت فيها الحوادث العجيبة المسطَّرة في اسفار موسى الكليم . فلدى مشاهدتنا جبل الطور كنَّا نفكر في تجلّي الربّ لشعبه في وسط الرعود والبروق ليُعلن اليهم بوصاياه ثمَّ نتذكَّر مسير بني اسرائيل في تلك القفار مدَّة اربعين سنة والربّ يرعاهم ويقيتهم ويظفرهم من كلّ اعدائهم بالمعجزات الباهرة . وهناك آثار أخرى مسيحيَّة وغيرهـا سبق الى وصفها المشرق (راجع رحلة خليل صبّاغ الى طورسينا ٧ : ٩٥٨ و١٠٠٣ ووصف طورسينا للشمّاس افرام ٩ : ٧٣١ و٧٩٤ ثم وصف معادن جبل الطور القديمة للاب لادسلاس استفانسكي ٩ : ١٠٦١ و١١٢٩)

وفي مساء ذلك النهار احبَّ القبطان ان يبهج النوتيين وعمَّال السفينة بتوزيع بعض الهدايا عليهم وكذلك تبرَّع الركّاب بهبة مالية جمعوها وفرَّقوها عليهم . فشكرهم البحريُّون الذين اجروا على ظهر السفينة عدَّة ألعاب رياضيَّة سُرَّ بها الركّاب وصفَّقوا استحساناً لها مرارًا . وبعد غروب الشمس بلغت الباخرة سويس فارست عندها ساعات حتى منتصف الليل ثمَّ قطعت الترعة فبلغت بنا صباحاً الى بورت سعيد حيث اضافنا حضرة الآباء الفرنسيسيين بما عُهدوا من اللطف فبقينا في ديرهم برهة تسافر احدى السفن الى بيروت امَّا مركب الماجري فواصل مسيرهُ الى مرسيلية

وانتهزنا نحن فرصة مكوثنا في بورت سعيد لتسطير اخبار رحلتنا فنُشرت وقتئذٍ في اللغة الافرنسيَّة في احدى مجلَّات اوربَّا وذلك ما سمح لنا ان نروي تفاصيل هذه الرحلة التي كان فاتنا كثير منها لولا تلك المذكّرة

وكانت اوَّل سفينة امكننا ركوبهـا للرجوع الى بيروت سفينة شركة اللويد النمساوية المسمَّاة امفتريت فركبناها يوم الاربعاء ٨ ك الثاني فاوصلتنا الى بيروت في

صباح الجمعة ١٠ منهُ بعد نوٍّ شديد قابلنا بين هيجانهِ وهـدوّ البحر الهندي والبحر الاحمر

حدّث ولا حرج عما شمل اخوتنا الرهبان في بيروت اذ رأونا رجعنا بالسلام بعدما انقطعت عنهم رسالاتنا مدّةً وانتشرت في حقّنا الروايات المزعجة . وكان يوم عودتنا تمام اربعة اشهر منذ خروجنا من بيروت فابدينا الشكر الجزيل لذاك الذي ارسل ملاكهُ فانقذنا من كلّ الشرور المحدقة بنا لذكرهِ المجد الى ابد الدهور

الحجل اللبناني

لحضرة الاب يوسف الحوري من اساتذة كليتنا

ولى الشتاء وزمهريرهُ . وأقبل الربيع وغريرهُ . فتنفّس الطيرُ الصعداء . وتغرّد بآيات الحمد لبارئهِ الذي نجّاهُ من اعباء الشتاء . فافرجهُ من ضيقتهِ واخرجهُ من وكرهِ ولو رثَّ الإهاب مهزول الجسم شاحبهُ

هاكه بعد بروزه محوّماً فوق المراعي الطيبة وضارباً بجناحيهِ على السهول الخصبة ليعالج هزالهُ ويستبدل ضمورهُ بالسمن فألفتَ اليهِ نظر الصيّاد وأهاب به من خمول الشتاء الى تشمير بارودهِ من الرطوبة وتجهيز بندقيتهِ وجلاّها من صدإ الخباء والتشمير عن ساعده لمطاردة الطير في مجاثمه وملاحقتهِ الى وكناتهِ لانه خُلق لخدمتهِ وسُخّر لافادتهِ ومنفعتهِ

لكل بلاد اطيار تفوق بعضها بعضاً بالحسن والظرف وبالنفع لقوت الناس فاحسن بلادنا طيرًا واطيبهُ لحماً الحجل فاصحاب البيوت يقتنونه والصيّادون يلاحقونه ووعور لبنان وغاباتهُ وحزونهُ وبطاحهُ غاصّة بهِ . واذا لحظنا في اخلاقهِ ما يستحق الذكر ويسلي الخاطر رأينا خدمةً لقراء هذه المجلة العلمية ان نكتب لهم شيئاً عن طبيعة هذا الطير الذي يقتنيهِ الغنيّ في بيتهِ وينهب الصيّاد الارض وراء اقتناصهِ معتمدين في وصفنا العيان والاختبار لا النقل والسمع فنقول :

﴿ وصف الحجل واشكالهُ ﴾ الحجل من فصيلة الدرّاج والكروان والقبج